العـــودة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ها نحن أولاء نعود الى الوطن بعد طول الغيبة والتجوال ؛ نعود إليه بقلوب تخفق ابتهاجاً بالعود ، كما غادرناه بقلوب تخفق ابتهاجاً للسفر واستقبال أسابيع نخالها دائماً تفيض متاعاً للنفس واستجماماً للجسم وانتعاشاً للروح المضنى

ولكن السفر لا يحقق دائماً ذلك الأمل ؛ ففى كثير من الأحيان يغدو التجوال مشقة وضنى ؛ ذلك أن الذهن المضطرم بذكيه الجديد فى كل لحظة فلا يفتأ يطلب المزيد من المناظر والصور ، والمشاعر الحساسة تجد دائماً ما يثيرها فى تلك الآفاق الاجتماعية الجديدة التى تلامسها فى كل خطوة ؛ وشغف الملاحظة يحفز دائماً الى المعرفة والبحث ؛ وإذا كان فى ذلك متاع للعقل والروح ، ففيه دائماً ضنى للجسم والقوى

على أن السياحة نزهة العصر ؛ ولقد كانت السياحة فيما مضى مشقة ومخاطرة ؛ وإنه ليحضرنا ونحن نكتب هذه السطور ، ونخترق العباب المتلاطم ، فى بهو أنيق وثير من أبهاء «الكوثر» وصف المقرى مؤرخ الأندلس لرحلته من المغرب الى الاسكندرية فى نفس الياه ، وما يصوره لنا من روعة البحر وأهواله ، فنذكر كيف استطاعت العبقرية البشرية أن تذلل الموج المروع ، وأن تسير فوقه المدن الأنيقة السابحة آمنة مطمئنة ، وأن تجعل من اختراق العباب المضطرم آية النزه والمسرات

ولقد شاد الشعراء والكتاب من قبل بمزايا السياحة ومتاعها على ما كان يحفها فى تلك العصور من الشاق والمخاطر ؛ ذلك أن للجديد دائماً سحرا لا يقاوم ، والنفس البشرية مفطورة على حب الاطلاع واكتشاف المجهول ؛ وقد كانت بلاد العالم يومئذ مجاهل بعضها بالنسبة لبعض ، فكان السفر اكتشافا لآفاق ومجتمعات مجهولة ؛ أما اليوم فقد اختفى المجهول من العالم المتمدن ، ولكن بقى الجديد يجذبنا سحره دائماً الى عوالم ومجتمعات مختلفة نأنس فى اكتشافها ودراستها لذة ومتاعاً للعين والنفس والروح

وقد يستغرق التجوال فى تلك العوالم والمجتمعات الجديدة كل حواسك وأفكارك ؛ ولكنه مهما أفاض عليك من البهجة والسحر ، لا يستطيع أن يخمد فى نفسك نزعة الحنين الى الوطن وما تزال ذكرى الوطن تمثل فى ذهنك فى كل خطوة ، أحياناً مقرونة بالزهو ، وأحياناً بالأسف ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال ؛ وما يزال شبح العود الذى لا يفارقك منذ اليوم الذى تغادر فيه الوطن يلوح لك ، ويقوى كلما ضعف سحر التجوال ، حتى يحل دور السأم ؛ وعندئذ يجذبك الوطن إليه بكل ما فيه من تأثير وسحر ، ويغدو العود سعادة تسارع الى اجتنائها

وها نحن نعود الى الوطن سعداء بالعود

* * *

ولقد غادرنا الوطن فى ظروف دقيقة تبحث فيها قضيته ، وتعالج مصايره على يد زعمائه الأوفياء ، فكنا خلال المرحلة نتطلع إلى أنباء المفاوضات المصرية الانكليزية ونتلقفها حيث كنا وأنى استطعنا ؛ وكانت الصحف والأنباء الأوروبية ضنينة بها كل الضن فلا تنشر عنها إلا كلمات يسيرة ؛ وكانت الصحف الانكليزية بالطبع أكثر تحدثاً عنها ؛ وكنا كلما شعرنا خلال السطور بأن أزمة تعترض المفاوضات زدنا لهفة وقلقاً ؛ فلما جاءت الأنباء بأن الأزمات كلها قد ذللت ، وبأن المعاهدة قد وقعت بالحروف الأولى ، وبأن وفد مصر سيمثل إلى لندن ، هللنا وكبرنا ، وفاضت نفوسنا أملاً واستبشاراً ؛ ولما جاء يوم الأربعاء السادس والعشرين من أغسطس ، وهو اليوم الذى حدد لتوقيع المعاهدة لبثنا — ونحن فى فينا — نتنظر النبأ الخطير بفارغ الصبر ، وكان الراديو أسبق المصادر إلى إذاعته فى مساء نفس اليوم ؛ وفى صباح اليوم التالى ظهرت الصحف النمسوية وفى صدرها نبأ توقيع المعاهدة ، ووصف موجز للعبارات التى تبادلها زعيم الأمة المصرية ومستر إيدن وزير الخارجية الانكليزية ؛ ثم توالت الأنباء بعد ذلك عن استقبال مصر للحادث المشهود ، واحتفالها به احتفاء يتفق مع عظمته وخطورته ، فكان أكبر أسفنا أننا لم نكن بمصر فى تلك الأيام التاريخية لنشهد بأعيننا ذلك المنظر الرائع : منظر أمة تستقبل وثيقة تحريرها وتعلن ابتهاجها بما

جنت من ثمار جهاد طويل شاق

ومن غرائب الاتفاق أن تكون نفس الفترة التي تمت فيها المفاوضات بين مصر وانكلترا ووقعت معاهدة الصداقة المصرية الانكليزية ، أعني ما بين بولية وأغسطس هي نفس الفترة التي شهدت فيها مصر ضياع استقلالها وحريتها منذ أربعة وخمسين عاماً

الله أكبر ! لقد دخلت مصر في عهد جديد وافتتحت صفحة جديدة من تاريخها

فرعى الله مصر في عهدها الجديد ، ووفقها على يد زعمائها وقادتها الأوفياء الى تحقيق ما تطمح إليه من عظمة وسعود

* * *

وحان وقت الرحيل بعد أيام ، واستحكم حنين العود ، فكان التردد على مكاتب السفر والتحري عن المواعيد وعن مختلف الطرق ، وكانت أزمة الأمكنة في البواخر من أي الثغور دليلاً على اضطرام حمى العود ؛ وإنك لتأنس في هذه الفترة التي تهيأ فيها اجراءات العود ، والتي تقوم فيها بآخر جولة في المدينة وفي منتدياتها شعوراً غريباً من الأسف والارتياح معاً . أما الأسف فلاختتام فترة من الرياضة النفسية والعقلية قلما نظفر بها في مصر . وأما الارتياح فلاختتام فترة من التجوال المبهظ والوحشة ؛ ذلك لأن السياحة مازالت ترفاً غالياً برغم ما تقدمه بعض الدول لتذليلها من التسهيلات في مسائل العملة والسكك الحديدية ؛ وقد ذهبت ألمانيا وإيطاليا في ذلك الى حدود مغرية حقاً ، ولكنك ما تكاد تزور ألمانيا أو إيطاليا حتى تشعر بأن هذه التسهيلات لا تعدو شيئاً مذكوراً بالنسبة لما تعانيه من غلاء فادح في كل شيء ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن نفقات المعيشة في أوروبا وبخاصة في فرنسا وسويسرا ، تبلغ على الأقل مثليها في مصر ؛ ولقد قيل مراراً إن مصر لا تقدم شيئاً لتسهيل السياحة ، وإنها يجب أن تجاري الدول الأخرى في تنظيم بعض تسهيلات مغرية للسياح ؛ ولكن من المحقق أن تكاليف السياحة في مصر هي أرخص منها في أي بلد من بلاد العالم ، ويكفي أن تتقدم مصر بهذه الميزة للسائحين

هذا وليس من ريب في أنه مهما كانت مسرات السياحة ومغرياتها فان السائح يشعر في بلاد الغربة بنوع من الوحشة يمروه من آن لآخر ، فاذا حان أوان العود شعر بنوع من الارتياح للتخلص من هذه الوحشة واستعادة الايناس في الوطن والأهل

* * *

ودعنا العاصمة النمسوية في صمت ، وتزودنا بالنظرات الأخيرة من هاتيك الربوع والمناهد الضاحكة ، وازدلفنا إلى محطة الجنوب لنستقل القطار إلى «جنوة» حيث نستطيع اللحاق «بالكوثر» وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب حين مررنا بجبال الالب قبالة «زيمرنج» ، وهنالك تأخذك الطبيعة بجمالها الرائع ، وتمتد الأشجار والأزهار على الربى إلى مالا تدرك العين

وفي ضحى اليوم التالي كنا في البندقية تتجول في ساحة سان ماركو ، وتطوف بكنيسة سان ماركو وقصر الدوجات وتقطع «قنطرة الزفرات» ما بين القصر والسجن ، ونتأمل هاتيك المناهد والآثار التي تذكرنا بصفحة من أروع صحف العصور الوسطى

ولقد شعرنا حين هبطنا البندقية أن يد التجديد قد سقتها وأسبغت عليها مسحة من البهاء لم تكن لها من قبل ، ووصلت كثيراً من أحيائها وطرقاتها المائية بالياسة ، وكان عهدنا بها أنك لا تستطيع التنقل فيها إلا «بالجندولا» ، فاذا بك اليوم تستطيع أن تقطعها سيراً من المحطة إلى الميدان — ثم إلى أنحاء كثيرة منها ؛ وإنك لتشهد اليوم هذا التجديد أينما حللت في إيطاليا ؛ وتلك آثار الفاشستية بلا ريب ، وآثار تلك الروح الانشائية التي تنفث إلى إيطاليا حياة جديدة في كل شيء

وأخيراً انتهينا مساء إلى جنوة ؛ وفي ضحى اليوم التالي ازدلفنا إلى الميناء فرحين باستقبال أول قطعة من أرض مصر ؛ أجل هاهي ذي الكوثر تقف باسمة في ركن من خليج جنوة الكبير ، وهاهو ذا العلم المصري الأخضر يخفق على ساريتها ؛ وإنه لمنظر يبعث إلى الفخر والزهو أن ترى سفناً مصرية صميمة تشق عباب هذه المياه ؛ ولقد كان لمصر مدى العصور الوسطى بحرية عظيمة تجوس خلال هذا البحر ، وكانت سفنها التجارية كثيراً ما تمثل إلى البندقية وسرقوسة وجنوه ، وكان للربابنة والبحارة السكندريين في تلك